

حواضر نهر النيجر تمبكتو - جيني - قاو

د. حوتية محمد

جامعة أدرار

Résumé:

The subject of the study of Islamic centres in West Africa shows how the deposition of the Arabo-Islamic civilization in this region and the extent of the spread of Islam among the region, spontaneously evolved a number of important Islamic kingdoms converted to Islam and have had a direct relationship between the north and south of the Sahara and from the kingdoms of Ghana and the Kingdom of the Islamic empire of Mali, the Kingdom of Senghay.

One of these urban centres we recall Timbuktu and Gao as they are on the River Niger had benefited greatly from the movement of scientific and commercial ties with the arrival of merchants and scientists from the desert towards Gao and Timbuktu on the Niger River.

Research in African history is difficult particularly when it concerns the Islamic centres since the post-historical period is very far in history Adding the fact that these areas were colonized changed the course of the Arabo-Islamic culture to Western European culture, however, the ties with Africa, needs our attention and more academic and scientific work should be carried out in a more objective way.

ملخص:

موضوع دراسة الحواضر الإسلامية في غرب إفريقيا يدل على مدى إستقرار الحضارة العربية الإسلامية في هذا الإقليم ومدى إنتشار الإسلام بصورة عفوية بين مناطقه فظهرت عدة ممالك الإسلامية هامة اعتنقت الإسلام

وكانت لها علاقة مباشرة بين شمال الصحراء وجنوبها و ومن هذه الممالك مملكة غانا وإمبراطورية مالي الإسلامية ومملكة سنغاي.

ومن هذه الحواضر نذكر تمبكتو وجي و قاو وباعتبارهم يقعون على نهر النيجر وقد استفادوا كثيرا من الحركة العلمية والتجارية التي أنسابت مع قدوم التجار والعلماء من شمال الصحراء صوب حاضرة جني و قاو و تمبكتو الواقعون على نهر النيجر.

إن البحث التاريخي الإفريقي هو من الصعوبة بمكان خاصة ما يتعلق بالحواضر الإسلامية نظرا لبعد الفترة التاريخية مابين الفترة الحديثة والفترة المعاصرة التي نعيشها إضافة إلا أن هذه المناطق تعرضت لاستعمار ثقافي غير من مجرى ثقافتها من عربية إسلامية إلى أوربية غربية ومع هذا فإن الحزام الذي يشدنا مع إفريقيا يجعلنا نوليّه اهتمام ونقوم بدراسة هذا التراث من حيث علمائه وتراثه نظرا للقواسم المشتركة التي تربطنا معه وإعادة القراءة بكل موضوعية لهذا علينا أن نتساءل عن هذه الحواضر التي وجدت في غرب إفريقيا.

المقدمة:

موضوع دراسة الحواضر الإسلامية في غرب إفريقيا يدل على مدى ترسب الحضارة العربية الإسلامية في هذا الإقليم ومدى إنتشار الإسلام بصورة عفوية بين مناطق، فظهرت عدة ممالك إسلامية هامة اعتنقت الإسلام وكانت لها علاقة مباشرة بين شمال الصحراء وجنوبها، ومن هذه الممالك مملكة غانا وإمبراطورية مالي الإسلامية ومملكة سنغاي.

ومن هذه الحواضر نذكر تمبكتو وجني و قاو وباعتبارهم يقعون على نهر النيجر وقد استفادوا كثيرا من الحركة العلمية والتجارية التي أنسابت مع قدوم التجار والعلماء من شمال الصحراء صوب حاضرة هذه الحواضر.

إن البحث في التاريخ الإفريقي هو من الصعوبة بمكان خاصة ما يتعلق بالحواضر الإسلامية نظراً لبعد الفترة التاريخية مابين الفترة الحديثة والفترة المعاصرة التي نعيشها إضافة إلا أن هذه المناطق تعرضت لاستعمار ثقافي غير من مجرى ثقافتها من عربية إسلامية إلى أوربية غربية ومع هذا فإن الحزام الذي يشدنا مع إفريقيا يجعلنا نوليه اهتماماً ونقوم بدراسة هذا التراث من حيث علمائه وتراثه نظراً للقواسم المشتركة التي تربطنا معه، وإعادة قراءته بكل موضوعية لهذا علينا أن نتساءل عن هذه الحواضر التي وجدت في غرب إفريقيا.

ما هي خصوصيتها ؟

وما هي الخلفية الفكرية التي استندت إليها ؟

ومن هم أشهر علماءها ؟

تمبكتو (Tombouctou)¹:

تعتبر حاضرة تمبكتو من الحواضر العربية الإسلامية المترامية في غرب إفريقيا وبالضبط على حوض نهر النيجر. موقعها المتميز التي جعل منها حاضرة تشكلت فيها عناصر سكانية جديدة ساهم في تكوينها العامل الديني والتربوي مساهمة مميزة، ونظراً لهذه الميزة سننطلق إلى مشاهير علماءها في مختلف التخصصات والمواد المدرسة بها من مختلف العلوم، ومساجدها وجوامعها، وهذا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

¹ تذكر الروايات أن اسم تمبكتو كان لإمرأة سكنت هذا المكان وكان الرحالة ينزلون عندها فتعرض لهم متاعهم ويساعدونها وتساعدهم انظر: أحمد فتوح عابدين **الحواضر الإسلامية في غرب إفريقيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر** رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث جامعة القاهرة معهد البحوث والدراسات الإفريقية قسم التاريخ 1989 ص 107. وكذا عبد القادر صالح نور الدين، مدينة تمبكتو حاضرة الثقافة العربية الإسلامية بغرب إفريقيا، العدد الخامس، **مجلة الدراسات الإفريقية**، منشورات مركز البحوث والدراسات الإفريقية، (د.ت)، ص 56.

تقع من على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى على منحنى نهر النيجر¹ ويعود تأسيسها إلى قبائل الطوارق إلى حوالي 948هـ الموافق (1087م) فقد اختاروها محطة في فصل الصيف ويغادرونها في الخريف ليتجهوا إلى المناطق الشمالية، وتحتل تمبكتو موقعا استراتيجياً من الناحية الجغرافية حيث تقع على عرق رملي وتطل على سهل زراعي يحيط بها من كل الجهات تبعد عن نهر النيجر باثني عشر ميلاً وعند فيضانه تسقى سهولها من مياهه وفي المنخفضات الجنوبية والغربية منها توجد مستنقعات تمول تمبكتو بالمياه الصالحة للشرب وتتجدد مياهها عند فيضان نهر النيجر، أما إذا كانت الفيضانات ضعيفة فعادة ما يستعمل سكان تمبكتو المياه الراكدة. وأثناء حكم التكرور قاموا بحفر قناة تصل ما بين تمبكتو ونهر النيجر تسمح بدخول الزوارق الصغيرة إليها.

بالقرب منها توجد بحيرة فاقبين (LacFaguibine) التي يبلغ طولها أكثر من مئة وثلاثين كيلومتراً وإلى شمالها تظهر الكثبان الرملية² تعتبر تمبكتو من الحواضر التي اكتسبت أهمية خاصة في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، رغم امتدادها في منطقة جغرافية صعبة ذلك أن موقعها في منطقة السافانا شبه الصحراوية والمحاطة بالصحراء من جميع النواحي يصعب الحياة بها وهو الأمر الذي جعلها تعتمد على أرياف خلفية للحصول على معظم احتياجاتها الغذائية.

يعود تأسيس المدينة إلى القرن 12م، تروي بعض الأساطير أن نشأتها كانت من قبل التوارق المنجرهارن الرحل الذين استخدموها كمقر لخيامهم

¹ يعتبر نهر النيجر ثالث انهار إفريقيا فهو يمتد من غرب القارة الأفريقية على شكل قوس يتجه بين الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وينتهي بدلتا كثيرة الفروع ويتصل به على مسافة قصيرة نهر بينوي (Benue) أنظر: شوقي الجميل، **تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها**، طبعة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية 1980 ص 102.

² P. Bary. A l'Assaut de L'Afrique. Tours: Mame, 1988, p. 175.

الموسمية في فصل الصيف ومستودع لحفظ الأغذية التموينية، وهذا ما ساعد على بقائها عبر الزمن.

بعد أن استوطن التوارق في عرق حمادية، ففي فصل الخريف كان التوارق يتوجهون إلى الشمال وبالضبط إلى أروانو كانوا يتركون في خيمهم امرأة عجوز تسمى تمبكتو تكلف بحراسة الأشياء الثمينة فيبقى معها العبيد وعدد من الطاعنين في السن و الذين تمنعهم ظروفهم الصحية من التنقل إلى أروان. بقيت تمبكتو بعض الوقت بحمادية ثم استقرت نهائيا بالمكان المعروف اليوم باسم تمبكتو كوباتوما، ثم وفد إليها السنغاي الذين يمكن اعتبارهم أوائل سكان تلك المدينة، ولم تلبث أن توافدت عليها بعد ذلك أقوام كثيرة من مناطق إفريقية مختلفة حيث كان الكثير من الرحالة من ليبيا ومصر وتوات ينتقلون إلى بيرو Birou وكانوا يستريحون بتمبكتو فطاب لهم المقام بها لما وجدوه بها من تبادل فكري وتجاري.¹

وقد سمح لها ذلك فيما بعد باكتساب شهرة كبيرة قامت على أساس نشاط تجاري واسع بالإضافة إلى مكانة دينية وتعليمية في الزوايا، واجتذبت إليها الكثير من العلماء، أما سكان البيرو الذين أثرت فيهم حكايات الرحالة الذين كانوا يقصدون تمبكتو فتعقبوهم إلى أن أصبحت تمبكتو مركز تبادل فأدى ازدهارها ورخاؤها إلى تعجيل انحطاط بيرو Birou، عشائر الغرب كانوا يتوافدون كل سنة أكثر وفي سنة 1200 قاموا ببناء حي خاص بهم سمي بـ بيروني كوندا Bironique Kaunda.

¹ ماري بيرنيام، مدينة تومبكتو في أواخر القرن التاسع عشر، العدد الرابع، مجلة البحوث التاريخية مركز

دراسة الجهاد الليبي، (د.ت)، ص 96-97.

جني(Djene):

تعتبر ثاني أهم حواضر السودان الغربي بعد تمبكتو وتقع إلى الجنوب الغربي من تمبكتو على أحد روافد نهر النيجر يمتد إقليم جني من مدينة ساي حتى بحيرة ديبو على مساحة سبعة عشر ألف كيلومتراً مربعاً أما المدينة نفسها فدائرتها الحضرية بلغت في العهد المغربي ما يقرب من ميل ونصف.

ويعود الفضل في بناء جني إلى برايرة صنهاجة فقد اختطوها لتكون ملتقى لتجار الملح والذهب ولم يلبث تجار الوانجار القادمون من الجنوب الغربي أن أقاموا بها وسكنوا صنهاجة.

وكانت المدينة على شكل بيضاوي تبعاً لخط سير النهر وبني السور عند الضفة اليمنى أما الأحياء فقد تزاхمت في الداخل واتخذت الشكل الدائري حول المسجد في الوسط ثم امتدت نحو الشرق ثم نحو الغرب.¹

¹ أحمد فتوح أحمد عابدين، نفس المرجع، ص 107، ثم أنظر: محمد حوتية، توات والأزواد، الجزء الثاني ص 425-426، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007..

كان مكان جنّي في القرن العاشر مكانا خصبا ينتجعه الرعاة بمواشيهم ويقيم فيه قليل من السكان ،وتتوسطه قرية صغيرة يسكنها فرع من قبيلة السونينكي وقد أسلم رئيسهم في نهاية القرن الثاني عشر.¹

وحين بدأ ازدهار تمبكتو صارت تلك القرية مكانا لانتقاء التجار وللتبادل التجاري بينهم وأصبحت القوارب تحمل إليها البضائع من تمبكتو باستمرار فتجد فيها راجا ،حيث أن تجار الجنوب يأتون جنّي ليأخذوا ما يحتاجونه من بضائع الشمال ويبيعون لتجار العبيد كما يبادلونهم بالذهب.

وهكذا يمكننا اعتبار ازدهار جنّي قد ارتبط بازدهار تمبكتو ،فمنذ منتصف القرن الثاني عشر أصبحت جنّي ثالث مدينة من حيث الأهمية التجارية في السودان الغربي كلّهُ ،بعد كل من تمبكتو وغازو.²

أما في الميدان الثقافي فقد كانت تحتل الدرجة الثانية في الأهمية بعد تمبكتو فكان بها كثير من العلماء وطلاب العلم ،ولذا كانت أهميتها تجبر السلاطين من الأساقى على احترامها ،كلما مرّ جيشهم بها فإنهم كانوا يلاقون قاضيها ويقدمون له الهدايا أو يساعدونه على بناء مأوى لطلاب العلم أو بناء مسجد من المساجد.³

وقد بني أول مسجد بجنّي بناء على تصميم أحد المغاربة يدعى معلوم إدريس وكان معاصرا للساحلي ،وربما أحد مساعديه.ويقوم مسجد جنّي الحالي على أطلال ذلك المسجد الذي بناه معلوم إدريس.⁴

¹ DELAFOSSE.M., Haute Sénégal – Niger , paris, 1912 T2 ,p 277.

² نفس المصدر .

³ عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان (تحقيق هوداس)، باريس ،1964، ص 38.

محمد كعت، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجوش واکابر الناس (تحقيق هوداس ويونوا)،باريس 1964 ص 64.

⁴ دولا فوس -أعلى السنغال ج 2- ص 280.

وقد حافظت جني على استقلالها تحت رؤساء قبيلة السوننكي حتى سنة 1473، وهي السنة التي أدخلها فيها سي علي تحت حكم سنغاي، أما في أيام مالي، فقد كانت مسالمة لمالي ولكن لم تدخل تحت سلطتها رسمياً على ما يبدو.¹

أما في الأيام الأساقية فقد تعاضم سكانها وكثر التجار بها، ودانت تمبكتو في الأهمية، وفي أيام المغاربة عين عليها قائد يتولى شؤونها وحدها، يدل على الكبر والأهمية التي وجد المغاربة المدينة عيهما.² وبعد ذلك خضعت جني بدورها لإمارة سيغو حتى عام 1518 حيث احتلها شيوخ حماد وأدخلها ضمن إمبراطوريته التي كان مركزها في ماسينا. ثم دخلت تحت نفوذ المملكة التي شكلها الحاج عمر، وأخيراً احتلها الفرنسيون سنة 1893.

ونعرف من العلماء الشهيرين في جني على أيام الأساقية موري ماجا الذي كان يباشر التعليم بمساجدها في القرن الخامس عشر، وقد ذكره السعدي كعالم بارع في تدريسه ومتمكن من معلوماته ثم القاضي محمد سانو الذي كان يباشر القضاء بها في النصف الأول من القرن السادس عشر، وكذلك العباس كبّي ومحمد بارها يورو، الذي خلفه في القضاء سنة 1552، وأخيراً فإن ممن أنجبته جني من القضاة البارعين هو أحمد طورفو الذي ولد بالمدينة وتولى بها منصب القضاء فبرع فيه.

¹ محمد بن عبد الله ابن بطوطة (الرحلة)، تحفة النظر في غرائب الأنظار وعجائب الأسفار، ج 2، دم المكتبة التجارية د.ت دار الكتب اللبناني، بيروت 1960 ص 73.

وعبد الرحمان ابن خلدون، كتاب الصير وديوان المبتدأ والخبر ج 6 بيروت 1959، دار الكتاب اللبناني 1284 ج 1، ص 318.

Léon l'Africain, Description de l'Afrique (tratemparal) Paris 1896, 2v, p 17.

2 محمود كعت، نفس المصدر، ص 29.

وإذا أردنا أن نستقصي ما كتبه الحسن الوزاني عن جني على أيام الأساقي وجدنا المدينة غالب أبنيتها من الطين ومن الأخصاص ،ولكن يقصدها كثير من التجار ويسكنها كثير من العلماء والمدرسين والطلاب ،وهي تتسع لكل الوافدين عليها ،بالرغم من أنها ليست إلا قرية صغيرة إذا قيست بمدن المغرب في ذلك الوقت.

ويأتي إليها كثير من بضائع الشرق والمغرب وأوروبا، وتصلها في الغالب عن طريق تمبكتو، حيث تسافر إليها يوميا القوارب المحملة بالبضائع عن طريق النيجر.

جاو(Gao):

ذكرها الجغرافي الأندلسي البكري سنة 1068 وقال عنها أن أهلها مسلمون ويحط بها المشركون وأكثر ما يتجهز بها الملح والودع والنحاس والمسبوك وحولها معادن من الحجر وهي أكثر بلاد السودان ذهباً¹.
تقع على الضفة اليسرى لنهر النيجر على بعد أربعمئة وأربعين كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من تمبكتو ويقول عنها فليكس دييوا (Félix Dubois.) أنها جوهرة وادي نهر النيجر وأنها مدينة عظيمة مثل سيجو ونيامي².

غاو هي المدينة التي اتخذت منها دولة سنغاي عاصمة لها منذ أيام آل ضياء الأولى، وفي أيام الأسقيين بلغت غاو أقصى ازدهارها، فقد وصفها ليون الإفريقي بالمدينة العظيمة في حين وصف تمبكتو بالمدينة فقط، ثم

¹ أبو عبد الله البكري. المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، نشره ديبسلان ط. الجزائر 1857 ص193.

² - أنظر:

أضاف بأن غاو بها قصور الملك و رؤساء دولته، ولذا فهي من أجمل المدن في السودان الغربي كله.

وحسب الإحصاء الذي أجري في سنة 1585 فقد بلغت منازل غاو 7626 دارا مبنية بغير الأخصاص، أما الأكواخ فإنها لم تحسب و كانت كثيرة¹، و اعتمادا على هذا الإحصاء قدر موني سكان غاو في أيام ازدهارها على أيام الأسقيين بخمسة و سبعين ألف نسمة².

ومهما يكن فإن غاو كانت على أيام الأسقيين قد بلغت درجة كبيرة من الازدهار، و كانت القوافل التي تأتي من جهة الشرق تقصدها قبل تمبكتو، و أما القوافل التي تأتي تمبكتو فإن كثيرا من بضائعها ينقل إلى غاو، و في ذلك الوقت الذي قدر فيه سكان غاو بـ 75 ألفا فإن سكان تمبكتو لم يكونوا يزيدون على الثلاثين ألفا. وهذا يدل على أن غاو كانت أكثر سكانا من تمبكتو، لأن بها مركز الإمبراطورية مما جعلها تصبح المدينة الأولى في عدد السكان.

وقد اختصت بالإضافة إلى ذلك بأن القوافل التي كانت تأتي من بلاد الحوصا كانت كلها تقصد غاو. ولكن غاو كان يسكنها التجار و رجال الدولة، أكثر مما كان يوجد بتمبكتو.

و من هذا تبدو أهمية غاو في كثرة السكان و في كونها عاصمة الإمبراطورية أكثر من كونها دار ثقافة.

وقد بقي قائما بها حتى الآن من ذلك العهد مقبرة الأساقي و المسجد المتصل بها، كما أكتشف بها عديد من أواني الأكل والأسلحة و الحلبي التي

¹ أنظر فيما يخص هذا الإحصاء كعت ص: 261، و ق أجرى ذلك الإحصاء جماعتان من سكان المدينتين،

وكل جماعة كانت تفخر بكبر مدينتها وتبهاى على الجماعة الأخرى بذلك.

² Mauny.R.Notes d'archéologie au sujet de gao , Dakar 1961 p 499.

كان يستعملها الموسرون من الأساقى وموظفيهم وكلها تبين عن مقدار البذخ الذي كانت تعيش فيه الطبقة الحاكمة على أيام الأسقيين¹.

والى جانب هذه المراكز الكبرى توجد مراكز أخرى صغيرة مثل و الأتا، تغزه و ندي و لكن الحياة في كل منها إنما كانت صورة مصغرة عن حياة المدن الكبرى، كما أنها تستمد نشاطها من المدن الكبرى كذلك، و لم يكن لها دور خاص. أما البوادي فقد كان أغلبها فقيرا و يغلب على حياة السكان فيها التنقل².

فقد خلفت هذه الحواضر أسماء عديدة من حيث العلماء الذين دع صيتهم على مر التاريخ فقد إشتهروا بعدت كتب و مؤلفات فكان البعض منهم ملما بعدد من العلوم كأحمد بابا التمكنتي وعدد آخر إشتهر بالقضاء كأحمد بن عمر ابن أقيت ولأهمية هذا الموضوع من حيث العلم و المصنفات العلمية التي تركوها فسوف ننفرد بذكر أشهر العلماء الذين برزوا في هذه الحواضر.

– أحمد بن عمر بن محمد أقيت³ (ت. 943هـ/1536م):

¹ حول تفاصيل نتائج الحفريات التي أجريت في غاو، حديثا، ونتائجها، أنظر موني في الكشف بصورة خاصة.

² هنا ما تنبئه مصادر ذلك العهد وفي مقدمتها كتابات السعدي وكعت.

³ – ترجم له: م. كعت تاريخ الفتاش، 85، بابا، نيل الابتهاج، 88-89، بابا، الكفاية، 135-

136، ع. السعدي، تاريخ السودان، في مواقع متعددة: 37-70، 38، م. الولاتي، فتح الشكور، 27-

28، بلو، انفاق الميسور، ترجم له باسم أحمد بن محمد أقيت، ص 430.

محمد بن محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في الطبقات المالكية (شجرة النور الزكية)، المطبعة السلفية القاهرة 1930، ص 278.

محمد حجي: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر مطبعة د. خالد. المغرب 1977-1978 ص 635.

م. ابن أبي شنب:

Mohamed Ben chenb, Etude sur les persamoyes mentionnes dans l'idjazer, du cheikh abdel gadir el-fesy, imp eleroux paris, 1908 148-147.

كان معتنيا بالعلم طول حياته ،درس على عدد من الشيوخ، منهم:
جده لأمه الفقيه اندغمحمد قاضي مدينة تنكبت، وخاله الفقيه المختار النحوي،
وبعض شيوخ منطقة توات.

-أحمد بابا التمبكتي: 963 هـ -1553م /1036هـ-1627م:
تلاميذه:

درس أحمد بابا بمدينة تنكبت قبل مجيئه إلى المغرب، ولما ساقته
الأقدار السياسية إلى مراكش، جلس - بعد خروجه من المحنة¹، بمسجد
الشرفاء يقرئ مختصر خليل وتسهيل ابن مالك وألفية العراقي ونحفة الحكام
وجمع الجوامع وغيرها من الكتب، فتخرج عليه طلبة كثيرون منهم: محمد بن
يعقوب الإدريسي المراكشي أجازة وذاكره في الأسانيد والرجال والتاريخ، وناله
المسلسل بالمالكية بسنده²،قاضي الجماعة بفاس، أبو القاسم بن أبي النعيم
الغساني.قاضي مكناس أحمد بن القاضي.الحاج أحمد بن الحاج محمد فهدي،
قرأ عليه القرآن الكريم بتفسير ذي الجلالين وقرأ عليه الموطأ و صحيح البخاري
ومسلم وغير ذلك، أجازة أحمد بابا إجازة مطلقة من غير تقييد أحمد المقرئ،
أجازة إجازتين:

- الأولى في أواسط محرم من عام 1010هـ / 1601م، وتشمل عدة
كتب منها: نيل الابتهاج جلب النعمة ودفع النقمة، ترتيب جامع المعيار
والزوائد عليه.

¹ - القصد إلى المدة التي كان محتبسا فيها.

² -أ. بابا، الكفاية، ص462.

- الثانية في ربيع الثاني من نفس العام (1010هـ/1601م)، وهي
إجازة حديثية في كل من الصحيحين بسندها السوداني والمشرقي الذي يتصل
بالبخاري ومسلم، وكتاب الموطأ وغيره¹.

ومن تلاميذ صاحب الترجمة أيضاً، عبد الرحمن التمارتي.

فحمل مصفداً من تمبكتو بعد أن نهبت خزائنه وسقط من الجمل
وبغى مسجوناً لمدة سنتين في مراكش ولما دخل على السلطان أبي العباس
أحمد المنصور وجده قد اتخذ لنفسه ستاراً يتكلم منه فحاج السلطان واشتكى له
أمره وما وقع في تمبكتو من خراب ودمار²

أيا قاصداً كاغوا فعج نحو بلدتين وزمزم لهم باسمي وبلغ أحبتي
سلاماً عطرياً من غريب وشائق إلى وطن الأحباب رهطي وجيرتي
وعزاً قارباً هناك أعزة على السادة الآلى فنيت بغيرتي³

وأحمد بن علي بن محمد السوسي البوسعيدي الهشتوكي الصنهاجي
⁴، وعلى المرواني المطاعي⁵، وخطيب وإمام الجامع الكبير بتزدانت عبد الرحمن
التلمساني⁶، والفقيه محمد بن عبد العزيز الدرعي⁷، والفقيه التهامي بن محمد
بن أحمد بن رحمون العلمي⁸، والشيخ أبو الفضل يحيى بن عبد الله بن سعيد بن

¹ - الإجازتين أثبتها أحمد المقرئ في روضة الآس، ص 303-305.

² صفوه من انتشر من الصلحاء ص 115-116.

³ نزهة الحادي ص 173.

⁴ - ذكر م. الافرائي أنه قرأ عليه بمدينة مراكش وصافحه وأجازه، صفوة من انتشر، 69.

⁵ - أ. المقرئ، روضة الآس، ص 208.

⁶ - ع. التمارتي، الفوائد الحمة، مخطوط خ. ع. د. رقم 3693، ص 51-109، 213.

⁷ - العباس ابن براهيم (التعارجي) الإعلام بمن حل بمراكش وأغامت من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، الرياض 1980 ص 259.

⁸ - المصدر السابق، 2: 307.

عبد المنعم وإخوته وأبناء إخوته الذين أجازهم عام 1008هـ / 1599م بأن يرووا عنه جزءا مما أشتملت عليه إجازة الخرفاني له¹

- مؤلفاته:

ألف صاحب الترجمة ما يزيد على أربعين تأليفا² لا زال معظمها مخطوطا، ومن أشهرها كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وكفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج.

- أحمد بن محمد بن سعيد، سبط الفقيه محمود بن عمر³، (ت. 976هـ / 1568م):

تلقى تعليمه بمدينة تمبكتو على يد جده لأمه محمود بن عمر، حضر عليه الرسالة ومختصر خليل كما أخذ عن غيره المختصر والمدونة بدأ التدريس في مدينة تمبكتو منذ عام 960هـ / 1552م، ومن جملة التلاميذ المتخرجين عليه الفقيهان الأخوان، محمد وأحمد بغيغ، قرءا عليه الموطأ والمدونة ومختصر خليل وغيرها كما أدركه أحمد بابا⁴، وحضر دروسه مع جماعة من الفقهاء منهم الفقيه محمد كب بن جابر كب، والقاضي عمر بن محمود، المؤرخ محمود كعت، كلهم سمعوا منه وقيّدوا عنه.

¹ - ع. التمارتي، الفوائد الجمّة، خ. ع. د. رقم 3693: ص 210

² - م. الولاتي، فتح الشكور، ص 36

³ - ترجم له: أ. بابا، نيل الابتهاج، 95، ترجم له باسم أحمد بن سعيد، أ. بابا، الكفاية، ص 139، ع. السعدي، تاريخ السودان، في مواقع متعددة، 34 - 35، ص 108، م. الولاتي، فتح الشكور، ص 28، م. مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 284

م. ابن أبي شنب:

"Etude sur les personnages", 2: 318-319

⁴ - أ. بابا، الكفاية، ص 139

أحمد بغيع بن محمود بن أبي بكر التنبكتي¹ (ت. 978 هـ/1570م):

تلقى تعليماً مركزاً على يد الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد، سبط الفقيه محمود، قرأ عليه المختصر، ودرس عليه مادة الحديث وبعد رجوعه من الحج، قرأ عليه الموطأ والمدونة والمختصر.

أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت² (ت. 991 هـ/1583م):

كان مشاركاً في الأصول والحديث والبيان والمنطق، مع براعة في الأدب. تلقى تكويناً متيناً على علماء تمبكتو ومكة وطيبة ومصر، فحصلت له بذلك ملكة العلم.

درس الصحيحين نحو من خمسة وعشرين سنة، كما درس الأصول والبيان والمنطق.

خزائنه وتلامذته: كان صاحب الترجمة: «جماعاً للكتب، وافر الخزانة، محتوية على كل علق نفيس»³، سموها بإعارتها لتلاميذه من أمثال ابنه أحمد بابا، والفقهين الصالحين، محمد وأخيه أحمد بغيع.

¹ - ترجم له: م. الولاتي، فتح الشكور، ص 29

² - ترجم له: أ. القاضي، يرة الرجال، 1: 155، ع. التنارتي، الفوائد الجمة، مخطوط خ. ع. د. رقم 3693، ص 212
أ. بابا، نيل الابتهاج، 93-95، أ. بابا ن الكفاية، 138-139، ع. السعدي، تاريخ السودان، 42-43، م. الولاتي، فتح الشكور، 29-30، م. مخلوف، شجرة النور الزكية، 286، ع. كحالة، معجم المؤلفين، 2: 33 (ترجم له بإسم أحمد بن عمر بن محمد أقيت)، م. حجي، الحركة الفكرية، 2: 636

م. ابن أبي شنب:

"Etude sur les personnages", 1: 146-147

³ - أ. بابا، الكفاية، ص 138

أبو بكر بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت¹ (ت. 991هـ/1583م):

نزىل المدينة ودفينها ،رفض الدنيا مع لأهل بيته من عظيم الجاه.كان محبا للأيتام وطلبة العلم بتمبكتو التي كان مدرسا بها، تخرج عليه ابن أخيه أحمد بابا.ألف تأليف لطاف في التصوف منها معين الضعفاء في القناعة. أحمد بن اندغمحمد بن أحمد بن أحمد اندغمحمد² كان حيا عام 1001هـ/1592 م:

فقيه نحوي لغوي ،له حظ في الأصول والبلاغة ،تلقى تعليما متينا في مدينة تمبكتو على يد الفقيه محمد بن محمود بغيغ ،قرأ عليه مختصر خليل ورسالة بن أبي زيد ،كما قرأ على غيره من أهل بلده. شغل منصب القضاء مدة قبل أن يمارس التدريس بجامع سنكري ،وكان يدرس قطر الندى والشذور وتسهيل ابن مالك ومختصر خليل وتحفة ابن عاصم ،مع إجادة وإحاطة في تدريس الألفية. - مؤلفاته:

له شرح حسن على الأجرومية سماه الفتوح القيومية ،فيه فوائد مهمة وفروع وتتمات يتشوق لها عالي الهمة ،يدل على وسع باعه في العربية ،وكثرة اطلاعه على دقائقها³. وله أيضاً تعليق على المرادي.

¹ - ترجم له: أحمد بابا التبتكي ،غفابة المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج (الغفابة).

رسالة جامعية لنيل شهادة الدراسات العليا بكلية الآداب التابعة لجامعة محمد الخامس بالربط.تحقيق محمد مطيع تحت إشراف د.محمد حجر 1967ص 166.

ع. السعدي، تاريخ السودان، 32، 41- 42

² - ترجم له: عبد الرحمان السعدي، تاريخ السودان ،اليونسكو باريس 1981 ،ص 295 -308.

محمد بن أبي بكر الصديق البرتاسي الولاتي.فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور(فتح الشكور) تحقيق.د.محمد حجر ومحمد الكتاني.دار الغرب الإسلامي ببيروت 1401 -1981، ص 39 ،أنظر: عمر كحالة،معجم المؤلفين مطبعة الترقى في 14 جزء دمشق 1960 -1961، 1: ص 149،أنظر: محمد حجي: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر مطبعة د.خالد المغرب 1977 -1978، ص 637.

³ - م.الولاتي، فتح الشكور، ص 39.

- أحمد بير محمد المختار بن أحمد¹ (ت. 1002هـ / 1593م):
من فقهاء مدينة تمبكتو، مارس التدريس بجامع سنكري.

¹ - ترجم له: ع. السعدي، تاريخ السودان، ص 170.

أحمد معيا¹(ت. 1002هـ / 1593م):

ينحدر من أسرة سن المعروفة بالعلم والمعرفة، أشتغل مفتيا ثم مدرسا بجامع سنكري.

- أبو بكر بن محمود ايد الإمام² (ت. 1004هـ / 1595م):
فقيه متمكن من أمور الفقه، عاصر حكم المغاربة لسنغاي.

- أحمد تروي³ (ت. 1024هـ / 1615م):
كان قاضيا عادلا بمدينة جني.

- أبو بكر بن أحمد بير بن الفقيه محمود بن عمر أقيت⁴،
(ت. 1039هـ / 1629م):

كان فاضلا خيرا، «شهد له بذلك أعمامه الصالحون، واتفقوا على تقديمه للصلاة بالناس حين مرض الإمام القاضي العاقب».

- الأمين بن أحمد بن محمد⁵: (ت. 1041هـ / 1631م):

له ملكة في مسائل الفقه والنحو واللغة، كما له خط في معرفة الصحابة. درس بجامع سنكري وتخرج عليه عدة فقهاء وقضاء، منهم المؤرخ عبد الرحمن السعدي الذي قال عنه: (كنا جماعة نعرض على شيخنا الفقيه الأمين دلائل الخيرات، والنسخ تختلف في إثبات لفظه سيدنا أو إسقاطها فسألناه

¹ترجم له:محمود بن الحاج المتوكل كعت، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيش وأكابر الناس،اليونسكو باريس 1981.

ص،174، ع.السعدي،تاريخ السودان،ص169-211.

² - ترجم له: ع. السعدي، تاريخ السودان، 213.

3 - ترجم له: ع. السعدي، تاريخ السودان، 238، 308م. الولاتي، فتح الشكور، ص38.

⁴ - ترجم له: ع. السعدي، تاريخ السودان، 35، 246 م.الولاتي، فتح الشكور، ص73، 74 (نقلا عن السعدي بلفظه)

⁵ - ترجم له: ع. السعدي، تاريخ السودان، 247م. الولاتي، فتح الشكور، ص62-63

عنه فقال: كنا نعرضه على الشيخ العلامة الفقيه محمد بنيع فسألته عنه كذلك فقال: ليس في ذلك الإختلاف بأس ولا يضر شيئاً¹

-أبكر الفلاني² (ت.1043هـ/1633م):

من خيرة فقهاء مدينة جني، دفن بمقابر الجمع الكبير.

- أحمد بن الفقيه اندغ محمد بن أحمد بري بن أحمد بن الفقيه القاضي.

اندغ محمد الكبير³ (ت.1045هـ/1635م):

من فقهاء مدينة تمبكتو ،تولى القضاء بها عام 1020هـ/1611 م بأمر من الباشا المغربي محمد لنك ،وعمره يومئذ خمسين سنة.

- إبراهيم بن أحمد بغيغ الونكري⁴ (ت.1048هـ/1638م):

مدرس بمدينة تمبكتو، من جملة ما كان يدرس، قصيدة ابن دريد.

تيمبكتو توفي في القرن 11 هـ/ 17 م ويقال أنه مكث في القضاء مدة خمس عشر سنة.

-أبو بكر سغنه المعروف بموركيبا⁵ (ت.1053هـ/1643م):

من فقهاء بلد شبل وعليه قومها، كان صديقاً للمؤرخ عبد الرحمن السعدي.

- أحمد بن القاضي موسى داب⁶ (ت.1061هـ/1650م):

من قضاة مدينة جني ،مكث في خطته مدة واحدة وثلاثين سنة.

¹ - م. الولاتي، فتح الشكور، ص63

² -ترجم له:ع.السعدي، تاريخ السودان ،ص295

³ - ترجم له: ع. السعدي، تاريخ السودان، في صفحات متعددة، 29 -30، 219، 222، 257، 295، 308

⁴ - ترجم له: م.كعت، تاريخ الفتاش، ص182،183

ع. السعدي، تاريخ السودان ،ص296

⁵ - ترجم له: ع. السعدي ،تاريخ السودان، ص266-267

⁶ - ترجم له:ع.السعدي ،تاريخ السودان ،ص242-302

الخاتمة:

تعتبر حواضر نهر النيجر تمبكتو و جني وقاو نموذجاً للحواضر الإسلامية التي قامت على نهر النيجر فقد استفادوا من موقعهم على هذا النهر فأصبحوا همزة التقاء ونقطة تبادل تجاري وعلمي ما بين غرب إفريقيا وشمال الصحراء ولم تنته هذه الأهمية العلمية عند هذا الحد بل تعدتها إلى الزواج والتصاهر ما بين السكان مما تولد عنه طبقة جديدة من المولدين ساهمت إلى حد بعيد في بعث الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا وساعدها توافد العلماء إليها من شمال حوض البحر الأبيض المتوسط ومن الأندلس.

لقد كانت الحضارة العربية الإسلامية تتطور وتزدهر في أطراف البلاد الإسلامية في الوقت نفسه كانت عناصر الضعف تدب فيها من الداخل، وكمثال على هذا فإن الفترة المدروسة في هذه الحواضر، ترجع إلى عهد الأسفيين في الفترة الممتدة مابين القرنين الخامس عشر والسادس عشر حيث أن الأسفيين كانوا قد أسسوا دولة استمدوا قواها الأساسية من المبادئ الإسلامية فقد نبذوا المفهوم القبلي الضيق واحتكوا بالعرب الوافدين عليهم، وهذا ما أدى إلى ظهور طبقة من العلماء الأفارقة كمحمود كعت، السعدي وأحمد بابا التمبكتي.

وإذا كان العمل الموضوعي هو أساس العمل في تاريخ السودان الغربي فإن الكتابات اعتبرها الغربية كثيراً ما ابتعدت عن الموضوعية خصوصاً في عدم الرجوع إلى المصادر العربية حول تاريخ وإصدار الأحكام المسبقة عن الحضارة الإسلامية في غرب إفريقيا.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن بطوطة محمد بن عبد الله، تحفة النظار في غرائب الأنظار وعجائب الأسفار، ج 2 دم المكتبة التجارية د.ت.

- ابن خلدون (عبد الرحمان) كتب الصبر والديوان المبتدأ والخبر، ج 6، بيروت دار الكتاب اللبناني 1284.
- البكري (عبد الله)، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، نشره ديبسلان، مخطوط المكتبة الوطنية 5636.
- بن مخلوف (محمد بن محمد)، شجرة النور الزكية في الطبقات المالكية، (شجرة النور الزكية)، المطبعة السلفية، القاهرة، 1930.
- بن القاضي (أحمد)، درة الجمال في أماء الرجال (درة الجمال)، دار التراث، القاهرة، المكتبة العتيقة تونس، الطبعة الأولى 3 أجزاء، 1970.
- الجمل (شوقي)، تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها، طبعة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية، 1980.
- دوفولاس، أعلى سينغال، الجزء الثاني.
- حوتية (محمد)، توات والأزواد، الجزء الثاني، دار الكتاب العربي الجزائر، 2007.
- حجي (محمد)، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، دار المغرب للتأليف و الترجمة والنشر مطبعة د. خالد. المغرب 1977-1978.
- كحالة (عمر)، معجم المؤلفين، مطبعة الترقى في 14 جزء دمشق 1960-1961.
- كعت (محمود)، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيش وأكابر الناس، (تحقيق هوداس) باريس 1964.
- الولاتي (محمد أبي بكر الصديق البرتاسي)، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور (فتح الشكور)، تحقيق محمد حجر ومحمد الكتاني. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401-1981.
- السعدي (عبد الرحمان)، تاريخ السودان، (تحقيق هوداس)، باريس 1964.
- التمارتي (عبد الرحمان)، الفوائد الجمة في إسناد علماء الأمة (الفوائد الجمة)، مخطوط خ. غ. بالرباط رقم ك. 93-36.
- التنبكتي (أحمد بابا السوداني)، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج (الكفاية).
- التنبكتي (أحمد بابا السوداني)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- الرسائل الجامعية:**
- بلو (أحمد)، إنفاق الميسور في معرفة علماء التكرور (إنفاق الميسور)، باحث جامعة نيل شهادة الدراسات العليا حققها الشاذلي، بإشراف محمد حجر، بكلية الآداب التابعة الجامعة محمد الخامس، الرباط، 1990.

- عابدين (أحمد فتوح)، الحواضر الإسلامية في غرب إفريقيا في القرنين 16-17، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة القاهرة، 1989.

المقالات:

- بيرنام (ماري)، مدينة تومبوكتو في أواخر القرن التاسع عشر، العدد الرابع، مجلة البحوث التاريخية، مركز دراسة الجهاد الليبي، (د.ت.).
- نور الدين (عبد القادر صالح)، مدينة تمبكتو حاضرة الثقافة العربية الإسلامية بغرب إفريقيا، العدد الخامس. مجلة الدراسات الإفريقية، منشورات مركز البحوث والدراسات الإفريقية، (د.ت.).

المراجع بالفرنسية:

- Ben chenb (Mohamed), Etude sur les persamoyes mentionnes dans l'idjazer, du cheikh abdel gadir el-fesy, imp eleroux Paris, 1908
- Delafosse M, Haut Sénégal-Niger, T2, Paris, 1912
- Félix Dubois, L'Islam noir. Paris: s. n, 1911.
- Léon l' Africain Description de l' Afrique (tratemparal) , Paris 1896 , 2v.
- Mauny. R. Notes d'archéologie au sujet de gào , Dakar 1951.
- P. Bary, AL'Assaut de L' Afrique, Tours: Mame, 1988.